القول – لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه ، وإن يكن أحد فَضَلهم فالذي لم يقل رغبةً ولا رهبة امرؤ القيس بن حُجْر ؛ فإنه كان أصحَّهم بادرة ، وأجودَهم نادرة .» (١)

وربما وجدنا فيما قاله عليٌّ بن أبي طالب ومنْ قبله عمر بن الخطاب عن امرئ القيس ما يوضِّح لنا سرَّ تقديمه على شعراء العربية جميعًا عند معظم النقّاد القُدامى ، وربما يزداد الأمرُ وضوحًا إذا تبيَّنا أن الرَّسول عليه الصلاة والسلام – قَبْل عمر وعليّ – قد وضع امرأ القيس في منزلة الإمامة والزعامة للشعراء . فقد رُوِي عن الرسول ﷺ قوله عنه : « أما إني لو أدركتُه لنفعتُه ، وكأني أنظر إلى صُفرته ، وبياض إبْطَيْه ، وحموشة ساقيه ، في يده لواء الشعراء ، يَتَدَهْدى بهم في النار .» (٢)

نخلص من هذا إلى أن عصر الخلفاء الراشدين ظهرت فيه بعض اتِّجاهات نقدية فردية مُتناثِرَة هنا وهناك ، دون أن يكونَ لها نظامٌ كليٌّ يجمع شتاتها ؛ فهي بمثابة اجتهادات تستدعيها مناسبةٌ من المناسَبات الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية في تلك البيئة الناشئة ، وهي بيئة كانت تعايش لحظة مخاضٍ فكري جديد صبَغ الحياة الثقافية والأدبية بطابَعها . وعلى الرغم من هذا يمكن أن نزعمَ أن اتجاه النقد الأدبي كان أخلاقيا خالصًا ، لا يكاد يفلت من هذه الأخلاقية إلى الجوانب الفنية الإبداعية إلا في القليل .

وبانتقال الخلافة إلى دمشق تغيرت الحياةُ تغيُّرًا يكاد يكون كاملا في معظم جوانبها الاجتماعية والثقافية والسياسية ؛ حيث أصبح تدبيرُ الدولة

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٢٩٧ .
(٢) القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ص ١٧ .